المصدر: السفير
التاريخ : ٢٧ اكتوبر ٢٠٠٥

كيمياء مفترضة لصفقة سورية أميركية

فؤاد زعيتر

رحَلَ غازي كنعان في <<لحظة>> سياسية سورية لبنانية حرجة، تحتمل اكثر من تأويل لموته. النظامان في البلدين مثار شكوك. وكثير من اركان السلطتين، إما أُودعوا السجون، او جرى التحقيق معهم بصفتهم شهودا أو مشتبها فيهم... او انهم ما زالوا مثار التباس وتحقيق من قبل القاضي الدولي ديتليف ميليس.

رحل إذاً، غازي كنعان في توقيت ملتبس، يحتمل الكثير من الشك، والكثير من الاسئلة... والكثير من عدم التصديق، وعْدم اليقين. ليس التوقيت <<بريئا>>. والرجلُ الذي غادر <<منتحراً>>، ليس عاديا، ولا ضعيفا، الى درجة يختار فيها لحظة <<انتحاره>> بعد <<وصية>> اذاعية، دافع فيها عن نفسه، وعن سوريا، وعن رفيق الحريري نفسه، موضوعِ التحقيق الدولي، والمتهم في قتله أولا وأخيرا النظام الأمني الذي كان غازي كنعان اول صانعيه، وأول رؤوسه المتدحرجة... <<انتحاراً>>!

لا يمكن، قانوناً، تحميل <<اللحظة السياسية>> عواقبَ موته، ولا يمكن، سياسياً، ايضا، تبرئتها من دمه. فقد كان غازي كنعان الأقدرَ، من موقعه الأمني السابق في لبنان، على تطويع الظرف السياسي اللبناني لصالحه، ولصالح السياسة السورية في لبنان. كان العسكريَّ الأمنيَّ الأقدرَ على الخوض في <<وحل>> تناقضات السياسة اللبنانية، وتطويعها، لتسلك عبرها رهانات سوريا في لبنان.

مات غازي كنعان، او انتحر، بعد ساعات قليلة على بث تقرير إخباري تلفزيوني

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

يُدينه بالفساد، هو وكثير من الطبقة السياسية اللبنانية التي صنع <<رجلُ سوريا القوي>> معظمَها. فهل هي شهادة لمهنية الاعلام اللبناني وكفاءته، أم <<مضبطة اتهام>> ضده. وهل نحن أمام إعلام لبناني، او بعضه، يحاول ان ينافس الصحافة الكويتية على تسريب معلومات <<مغلوطة>> و<<مضلّلة>>، تنفي عن لجنة التحقيق الدولية حياديتها، وتبرّر لاحقا التشكيك في مدى صدقيتها!

كان يمكن تحميل الإعلام مثلَ هذا <<الدَّين>> الثقيل، لو ان وزير داخلية سوريا <<انتحر>> في ظروف عادية. وكان يمكن لاتهامات وزير خارجية سوريا الدائم، و<<رجل عهديها>>، فاروق الشرع، ان تكون بمثابة <<إبلاغ>> لو ان توقيتت <<الانتحار>> كان في زمن غير هذا الزمن الحرج الذي تعيشه الدبلوماسية السورية. لكن غازي كنعان <<انتحر>> عشية صدور تقرير ديتليف ميليس في جريمة اغتيال سياسية، استبقه كثير من الطبقة السياسية اللبنانية، بمن فيهم معظم الاكثرية النيابية الحالية، وحاولوا، منذ تكليفه مهمته، الالتفاف عليه، واصدار إدانة مسبقة لسوريا فيه. يمكن السؤال هنا، إن كانت مجرد مصادفة ان ينتحر غازي كنعان في هذه اللحظة العصيبة لسوريا. سرّب البعض ان غازي كنعان يملك مخزونا هائلا من <<الأسرار>> التي تضيء على خفايا حقبة طويلة، ومريرة، من الوصاية السورية وخطاياها في لبنان (ربما إحدى خطاياها أنها لم تُرد اختيار <<حلفاء>> حقيقيين لها، بل أرادت تابعين ومأجورين فقط، مياومين في <<السياسة>>، فانقلب معظم من صنعتهم الحقبة السورية عليها). وسُرِّب ايضا انَ هذه المعلومات كان ثمة ضرورة لحجبها... فهل ما سُرّب صحيح، فكان ثمة حاجة ايضا الى ان <<ينتحر>> أحد حافظي هذه الاسرار، وأحد صانعيها، وصانعي سياسييها اللبنانيين.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

هل كانت مجرد مصادفة، إطلالته الاذاعية و<<حوصيته>> الأخيرة عبر <<صوت لبنان>>. هل كان مدروسا ومخططا لها، ام ان تقرير <<نيو تي في>> <<المضلل>> كان خطيرا بحيث يستفز <<رجل سوريا الأقوى>> في لبنان، وصانع سياسييه، ليرد عليه، ومن ثم يسلم قدَره لرصاصة في الفم تضع خاتمة غامضة، ومأساوية، لرجل استثنائي، امتلك مهارات استثنائية لتكريس النفوذ السوري في لبنان.

<<مات غازي كنعان لأنه يعرف الكثير>>! إذا كان هذا الافتراض صحيحا (وقد يكون!)، فإن ضحايا آخرين قد تكون تُهيَّأ لهم ظروف انتحار مشابهة، او أكثر غموضا ومأساوية. هل يصح الخوف هنا على بعض حافظي الحقبة (أو الحقبتين، على حد توصيف وليد جنبلاط) السورية، في شقها اللبناني، وعلى بعض صانعيها اللبنانيين!

□□□

كان ثمة رغبة سورية لبنانية مشتركة بالتبرؤ و<<غسل الأيدي>> من حقبة سوريا في لبنان. التمديد لإميل لحود فاقم من خطايا تلك الحقبة. وجاء اغتيال رفيق الحريري ليسرّع من وتيرة الاعتراف بفعل الندامة على <<حماض>>، أكلَ الجميعُ، بمن فيهم زعماء الاكثرية النيابية الحالية، وبمن فيهم واشنطن نفسها (ولو بالواسطة) من صحنه. لقد وعت دمشق، متأخرة، ضرورة التبرؤ في حقبة كانت فيها (برضا الادارات الاميركية المتعاقبة) اللاعبَ الوحيد في صناعة الحدث اللبناني. كان المطلوب من سوريا <<غسل يديها>> من كل رموز الحقبة (أو الحقبتين) السورية الماضية. تشييع غازي كنعان الرسمي <<الخجول>>، ربما يشي بذلك. تصريح الرئيس السوري، بشار الاسد، لمراسلة محطة <<سي أن

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

أن>> الاميركية، (<<الانقلابي>>) ب<<تخوين>> اي متورط سوري، وقبول محاكمته دوليا، يشي ايضا بذلك. لقد بدأ نظام دمشق يتقبل احتمال <<ضلوع>> سوريين و<<تورطهم>> في جريمة الاغتيال، بعدما كان مجرد افتراض ذلك بمثابة <<الحرم>> السياسي السوري. هل هي الخطوة الاولى، من جانب دمشق (في شقها اللبناني الجنائي)، نحو تبرئة النظام: الاستعداد للقبول ب<<تورط>> <<أفراد>> أمنيين سوريين، من اجل تهيئة الارض لتبرئة <<سياسية>> للنظام؟

قد يبدو الأمر كذلك، فثمة <<فترة سماح>> دولية، تنتظر الولاياتُ المتحدة (خصوصا) من سوريا استغلالها، لسداد فواتير اخرى (العراق، فلسطين)... من اجل البقاء ضمن خارطة انظمة المنطقة <<الحية>>!

قد تكون هذه هي <<الكيمياء>> الجديدة التي خلص اليها النظام السوري من اجل عدم السير، طوعا او إكراها، الى المصير العراقي. قد يكون غازي كنعان هو إحدى ضحايا هذه الكيمياء الجديدة. وقد يكون افتراض <<وجود>> ضحايا آخرين مقنعاً.

فدمشق بدأت تعي جيدا خطورة الضغوط السياسية التي تمارَس عليها، وبدأت تحصد ثمار <<العزلة>> الدولية، وحتى العربية، التي جلبها لها تقرير ميليس، وفرضها عليها. هي تحاول ان توجد <<ثقباً>> في جدار هذه العزلة. وهي تعرف ان المطلوب منها كثير، وليس لبنان سوى جزء من <<الفاتورة>> السياسية التي على دمشق سدادها. فقد لا يعني لبنان كثيرا للولايات المتحدة، اذا ما تم تحسين <<السلوك السوري>> في مكان آخر: الملف العراقي. سوريا تعرف ذلك جيدا، وواشنطن تعيه، وتحرص عليه اكثر. ومن اجل ذلك، ثمة رغبة سورية اميركية مشتركة من اجل نزع فتيل التوتر بينهما، حتى وإن كثر في المرحلة الحالية الحديث عن <<عواقب خطيرة>> تنتظر النظام السوري. فما يتم البحث عنه حاليا هو الآلية و<<الأجندة>> اللتان لا تُحرجان أياً من الطرفين (وتحديدا دمشق)، ولا

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

تُظهرانه بمظهر المستسلم، او المسلّم بكل اوراقه من دون حفظ ماء الوجه. ما يجري البحث جديا حوله الآن هو حفظ ماء الوجه. فواشنطن تدرك جيدا ان دمشق لا تزال بوابة ضرورية لاستقرار المنطقة، وإلا فإن كلام رئيس وزرائها محمد ناجي العطري ب<<فتح ابواب جهنم>>، لا يعود تهديدا فقط، بل ربما يتحول الى واقع لن تسلم معه مصالح واشنطن، ولا سياساتها في المنطقة. وإدارة بوش (وتحديدا وزيرة الخارجية كونداليسا رايس) أكيد أنها تعي جيدا (حتى وإن لم تعترف) ان ثمة مفاتيح كثيرة في حوزة سوريا، لا تزال تصلح لفتح <<أبواب جهنم>> المنطقة (في العراق، وفلسطين، وايضا وايضا في لبنان). وهي، لأجل ذلك، تحتاج كما دمشق الى صفقة تعيد ترسيم علاقاتها مع سوريا، ومع دول الجوار ثانيا، ومن ضمنها لبنان (يحلم اللبنانيون، ويجانبون الواقع والسياسة كثيرا، ان افترضوا انهم لن يكونوا، مستقبلا، في ظل الطبقة السياسية القديمة الجديدة، تحت وصاية ما. ولن يكون مستغربا قطّ إن عاد لبنان، مرة جديدة مثلما حدث في <<صفقة>> حرب تحرير الكويت مادة بازار سوري اميركي، قد يُعيد بيروت الى <<بيت الطاعة>> السوري)، بما لا يعيق سياسة ادارة <<المحافظين الجدد>> الحالية في المنطقة، ولا يحرم دمشق مما تفترض انه يمس بأمنها القومي، ويعطي نظام البعث القائم فرصة جديدة لالتقاط الأنفاس. قد تُرجئ التطورات والمواقف التصعيدية الاخيرة، بعد صدور تقرير ميليس، من امكانية

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

تحقق مثل هذه <<الصفقة... لكنها سوف ترجئها، فقط، من دون ان تنفي احتمالها، او وجودها أصلا.

(□) ملاحظة جدير التوقف عندها: كان غريباً ألا يشارك علناً، في تأبين غازي كنعان، ولا في تشييعه، كثير من الاحزاب والقوى والشخصيات السياسية اللبنانية، التي كانت، ولا تزال، <<محسوبة>> على دمشق. يجدر السؤال هنا: هل كان الأمر ليحصل لو ان سوريا لم تسحب جيشها ونفوذها من لبنان. هل يصح هنا افتراض أمر لن يتحقق بعد اليوم: هل كان بقي أحد في بيروت، لو ان غازي كنعان، او حتى رستم غزالة، <<حرشّحا>>... نعم <<حرشّحا>> فقط، زمن <<الوصاية>> السورية!

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية